قادة الاصلاح فى القرن الثالث عشر :

الشيخ شامل

زعيم القوقاز وشيخ المجاهدين

للأستاذ برهان الدين الداغستانى

٣ — كان الحاج جبرائيل من أهل قرية « جرقط » صانعاً ماهراً يجيد صنع كل ما تقع عينه عليه ، وفى ذات يوم من الأيام قصد إلى ساحل البحر الأسود ، وركب إحدى البواخر ، وتوجه إلى الحجاز ، وأدى فريضة الحج ، ثم رجع إلى مصر وأقام بها فترة رجع بعدها إلى القسطنطينية ومنها إلى بلاده الأصلية فى الداغستان حيث كان الشيخ شامل فاتصل به وعرض عليه خبرته ومهارته الصناعية ، واقترح أن يقوم بصب المدافع وصنعها محلياً ، ومقاتلة الروسيين بنوع أسلحتهم ، وأظهر شامل — رحمه الله — خوفه من الفشل فى هذا المشروع ، وعارض فيه بادىء ذى بدء ؛ ولكنه — تحت تأثير الالحاح والاغراء — قبل المعاونة والمساعدة ورضى بالمساهمة فى هذا المشروع ، وقدم كل عون ممكن لهذا الصانع الماهر الوطنى المخلص ، وقام الحاج جبرائيل بأول محاولة لصنع المدافع ، فجمع بقايا المدافع المحطمة التى تركها الروسيون فى بعض المعارك السابقة ، وأذابها ، ثم صب منها مدفعاً جديداً ، ولكن هذا المدفع لم يقو على تحمل أول تجربة أجريت له ، فتحطم بعد قذف القنبلة الأولى منه ، وكان فى هذا الفشل الحافز الذى حفز شاملا واخوانه والحاج جبرائيل ومهارته ، وأعيدت المحاولة ، ونجحت ، ومن يومئذ أصبح فى امكان الشيخ شامل وجنوده الاعتماد على قوة المدفعية ومقابلة الروسيين بنفس سلاحهم الذى يقاتلونهم به .

وكان لصنع المدافع فى بلاد الداغستان ونجاحها ، واستعمالها فى المعارك التى وقعت بعد ذلك أثر كبير سواء فى تقوية الروح المعنوية بين المجاهدين المسلمين أو فى إيقاع الخوف والرعب فى قلوب أعدائهم من الروسيين ، وأهل البلاد الضالعين مع الروسيين ، وكان ذلك حوالى سنة ١٢٥٩ هـ و سنة ١٨٤٣ م .

٤ — كان الشيخ شامل — من يوم صنع المدافع فى الداغستان واستعمالها فى الحروب — يسير من نصر إلى نصر ، وذاعت شهرته ، وقويت شوكته ، وهابه خصومه بعد أن أوقع بهم فى عدة معارك فاصلة ، كان لها وقع عظيم فى نفوس الفريقين المتحاربين ، ولجأت القوات الروسية إلى قلاعها وحصونها .

فى هذه الأثناء كان زعماء الجراكسة وأعيانهم يرسلون الرسل والكتب متتابعة بدعوة الشيخ شامل الى بلادهم . لمساعدتهم على رفع نير الاحتلال الروسى عن رقابهم ، مظهرين الطاعة والاخلاص له ولدعوته الدينية الوطنية التى رفع رايتها فى ربوع بلاد الداغستان .

وفى أوائل سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٦ م) عزم الشيخ شامل على اجتياز الحدود والذهاب إلى بلاد الجركس ، فجمع جمعاً عظيما من الجند الخيالة والرجالة وأخذ معه سبعة مدافع ثقيلة ، ومقداراً وافراً من المهمات والأسلحة الحربية ، واجتاز نهر « ترن » ونزل فى بلاد « قبرطاى » الواقعة فى الشمال الغربى للداغستان ، وأخذ ينشر تعاليمه ومبادئه عن طريق الوعظ والارشاد ، وأقبل عليه الأهلون مرحبين وأظهروا استجابتهم لدعوته وموافقتهم لها ، وبينما كان الشيخ شامل يقوم بهذه المهمة وينظم الحياة الدينية والمدنية فى تلك البلاد . جاءه النذير بأنه وقع فى كمين دبره له الروسيون . إذ قطعوا عليه خط الرجعة ، وسدوا المسالك وأقفلوا الجسور التى تصل ما بين بلاد الداغستان وأقاليم الجراكسة ، فأسرع شامل بالعودة من حيث أتى ، وبعد تصادم قوى بينه وبين الروسيين وتراشق بالمدافع استطاع الشيخ شامل أن ينفذ قواته ويجتاز بها نهر « ترن » ، ورجع إلى بلاده منهوك القوى ، بعد أن خسر فى هذه الرحلة كثيراً من قواته ومهماته ، وكاد يصاب بهزيمة منكرة لولا حزمه وقوة احتماله ، ولولا مهارة الحاج يحيى قائد المدفعية فى جيش شامل الذى استطاع أن يستخدم ما معه من المدافع الثقيلة أحسن استخدام فى الوقت المناسب .

وانطلقت وأنا أدير فى رأسى هذه القضية الصغيرة التى فسرت لى تفسيراً عملياً معنى الحرية ، وظللت ساعة لا تبرح خيالى رجلا الشيخ يضغط بنعليهما على بطن ذلك المقبع الذى ظن أنه لا يزال لقبعته ما كان لها قبل من هيبة !

الخفيف

٥ — كان لهذه الحادثة أثر بعيد فى المعارك التى تلتها ، فقد قويت الروح المعنوية فى الجيوش الروسية المحاصرة فى القلاع المتناثرة هنا وهناك ، فقاموا بعدة كرات على قوات شامل ، ووقعت بين الفريقين مصادمات عنيفة ، وأخذت الحرب فى بلاد الداغستان صبغة رسمية ، واسترعت اهتمام العالم أجمع ، وحشدت القيصرية الروسية أعظم قوادها ، وأرسلت إلى الميدان جموعاً كبيرة من خيرة جنودها ونظم كبار شعرائها القصائد الطوال فى دعوة الناس إلى الجهاد فى الداغستان ولكن شاملا كان مع كل ذلك — كالعهد به — يعمل فى صمت وهدوء وبنفس الايمان والثقة بالله ، وبنصره لعباده المخلصين .

ولما رأى مبلغ ما كان لصنع المدافع من نفع وتأثير حربى أخذ يشجع كل تفكير فى صنع شىء جديد يمكن الاستعانة به فى مقاومة العدو ، وفى سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ — ١٨٥٠ م) تمكن الصناع الداغستانيون من صنع البارود فى بلادهم ، وأعدوا كل ما يلزم لهذه العملية من آلات ومعدات ، وأصبح فى امكان المجاهدين المسلمين استخدام البارود فى حروبهم ضد الروسيين من ذلك التاريخ ، كما يستعملون المدافع المصنوعة فى بلادهم وبالأيدى الداغستانية من نحو ثمانية أعوام .

٦ — اتسع نفوذ الشيخ شامل فى جميع بلاد الداغستان ، وسارت باخباره الركبان ، وكثرت مصادماته الناجحة ضد الروسيين ، وفى أوائل فصل الخريف . فى اليوم العاشر من المحرم سنة ١٢٧٠ هـ (١٣ اكتوبر سنة ١٨٥٣ م) قام الشيخ شامل بحركة جريئة أوقعت الرعب فى قلوب حاميات الروس فى بلاد القوقاز كلها ، ففى ذلك اليوم ساق سيلا عظيما من قواته ومدفعيته ، واجتاز بها حدود بلاد « الكرج » وحاصر قلعة « زنطة » حصاراً محكما قوياً ، واضطر حاميتها إلى التسليم فى النهاية ، ثم بعث البعوث والسرايا إلى القرى المتناثرة فى تلك الجهات ، فأغارت عليها ، وأخذت الأسرى وغنمت الأموال الكثيرة . ثم رجع إلى مقر قيادته فى داخل حدود الداغستان بعد أن قتل من الأعداء نحو (٢٫٠٠٠) قتيل وأسر نحو ٨٩٤ أسيراً ، وغنم من الأموال والأسلحة مقداراً عظيما . وكان بين الأسرى الجنرال « جوجوزه » قائد حامية « زنطة » وبين السبايا زوجته وبنته وكثيرات غيرهن من كرائم العقيلات ، وبنات الأشراف .

بقى هؤلاء الأسرى عند الشيخ شامل نحو تسعة أشهر ، وجرت المخابرات والمفاوضات بين الشيخ شامل والقيادة الروسية العليا لمبادلتهم بالأسرى المسلمين الذين كانوا فى أيدى الروسيين .

وفى النهاية تم الاتفاق بين الطرفين على طريقة هذا التبادل ومكانه ، فقد اتفق الفريقان على اختيار موقع « أنصنفر » على ضفة نهر « مجك » . كما حصل الاتفاق على مبادلة الجنرال « جوجوزه » بابى الشيخ شامل جمال الدين الذى كان رهينة فى أيدى الروسيين من نحو ستة عشر عاماً ، ثم مبادلة كل مسلم رومى ، وجعل لكل أسير زائد وللسيدات والأولاد من السبايا فداء محدود ، وفى أواخر سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٤ م) تم هذا التبادل فى « انصنفر » على ضفاف نهر « مجك » ، وأخذ المسلمون أموالا كثيرة فداء الأسرى الزائدين والسبايا من النساء والأولاد . وكان يوماً مشهوداً عم فيه البشر بين الجميع .

٧ — بعد تبادل الأسرى فى أواخر سنة ١٢٧٠ هـ تحاجز الفريقان بعض الشىء ، وخمدت نار الثورة الوطنية ، والحركة الدينية الاصلاحية التى أشعلها النازى محمد الكمراوى منذ نيف وخمس وعشرين سنة ، وكانت هذه الحادثة أشبه بهدنة غير رسمية بين الفريقين . كان قد مضى على نشوب هذه الثورة فى تلك البلاد أكثر من ربع قرن من يوم أن رفع النازى محمد الكمراوى علم الثورة ، وكان مضى عليها أكثر من عشرين عاماً من يوم تولى الشيخ شامل قياديها .

فلما رجع أولئك المجاهدون إلى قراهم وضياعهم بعد طول الغياب عنها ، والتنقل بين مختلف البقاع وتلك البلاد الجبلية الوعرة رأوا ما عم قراهم من الخراب والدمار ، وما حل بأهليهم من الفاقة والفقر وسوء الحال الاقتصادية ، لأن أكثر القرى كانت قد خلت من الرجال الأشداء القادرين على الأعمال الزراعية ، وتولى هذه الأعمال الشاقة النساء ومن هم فى حكم النساء من الشيوخ الفانين والأولاد الضعاف ، فساءت حال الزراعات ، ونقصت الحاصلات وانتشر الفقر والضيق .

ثم إنهم نظروا فوجدوا أنهم فى ثورة متصلة الحلقات من نحو

ربع قرن من غير أن تمتد اليهم يد بالعون والمساعدة من خارج حدودهم ، ومن غير أن يستطيعوا حتى الاتصال بخليفة المسلمين ليعرضوا عليه حالهم ، وما يعانونه من الشدة وسوء الحال .

لابد أن هؤلاء المجاهدين — أو أغلبهم — فكروا فى هذا كله ، فرأوا سوء الحال المنذر بأسوأ مصير ، فوهنت عزائمهم وتراخت وبدأ الناس يتسللون من حول شامل شيئاً فشيئاً ، ثم بدأت الحرب المعروفة بحرب القرم بين الروس والحلفاء : (الأتراك والانكليز والفرنسيين) . فى النصف الثانى من سنة ١٢٧٠ هـ ، واستمرت إلى النصف الثانى من سنة ١٢٧٢ هـ ، ولكن الشيخ شاملا لا يستطيع انتهاز هذه الفرصة المواتية . لما قدمنا من الأسباب ، ولم يستطع الحلفاء ، مد يد المساعدة للشيخ شامل لأن الطريق بينه وبينهم كانت مقفلة تماماً .

أقول هذا على الرغم مما جاء فى « لاروس » فى أثناء ترجمة الشيخ شامل من « أن الحلفاء لم يقصروا فى تقديم المعونة إلى شامل ، اذ كانوا يقدمون إليه ما يحتاجه من لوازم حربية » .

أقرر هذا لسببين اثنين: الأول ان الطريق بين الحلفاء والشيخ شامل كانت مغلقة تماماً من جميع الجهات ، فلم يكن من الممكن الاتصال به من الخارج .

والسبب الثانى هو أن الذين أرخوا لثورة الشيخ شامل وذكروا دقائقها ، وتتبعوا تفصيلاتها لم يذكروا شيئاً عن هذا العون المزعوم . على أنه لو كان حديث هذا العون صحيحاً لرأينا شيئاً من الحياة والانتعاش فى الثورة إبان حرب القرم ، ولكن على العكس من ذلك تماماً نجد شيئاً من الهمود والخمود يعم أرجاء البلاد طول تلك المدة . إذا صرفنا النظر عن بعض الحوادث المتفرقة التى وقعت هنا وهناك فى فترات متقطعة . مما لابد من مثله بين فريقين طال أمد القتال بينهما أكثر من خمسة وعشرين عاماً .

٨ - لما انتهت حرب القرم ، ووقع الروسيين شروط الصلح مع الحلفاء فى باريس فى ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ م و ٢٢ رجب سنة ١٢٧٢ هـ تفرغوا لقتال شامل ، ووجهوا كل همهم للقضاء عليه ، وانهاء حال الثورة فى جبال القوقاز التى طال عليها الأمد، ولهذا نجد الروسيين يجهزون قوة عسكرية كبيرة مكونة من نحو (٦٠،٠٠٠) رجل ويرسلونها إلى القوقاز ، ثم تتابعت حملاتهم العسكرية بعد ذلك كما نشط جواسيسهم ودعاتهم لاستمالة بعض القبائل والأعيان إلى جانب الروسيين بما كانوا ينثرونه من الأموال الطائلة . فلما كان أواخر سنة ١٢٧٤ هـ .(١٨٥٨م) كان كثير من أهل الجهات النائية قد خرج على الشيخ شامل ، وأخذ يقوم ببعض الخدمات للقوات الروسية ، كشق الطرق وحراستها وما إلى ذلك ، وفى شهر رجب سنة ١٢٧٥ هـ (فبراير سنة ١٨٥٩م) جاء الروسيون بقوة كبيرة ، وحاصروا شاملا وأنصاره فى مقر قيادته فى قلعة « بكى درغية » .

ضيق الروسيون الحصار على شامل وأصحابه ، وقاتلوه قتالا شديداً إلا أنهم لم ينالوا منه نيلا لحصانة القلعة وشدة دفاع المجاهدين وبعد نحو أربعة أشهر من هذا الحصار تراجع الروسيون وفكوا الحصار عن القلعة ومن فيها ، فانتهز الشيخ شامل هذه الفرصة ، وخرج مع جميع أصحابه ، ونقل كل ما أمكن نقله من المدافع والمهمات والأرزاق ، وذهب إلى قرية « ايشجيلى » ورابط فيها إلا أن الروسيين لاحقوه هنا أيضاً ، وهاجموه وأحاطوا به ، وبعد أن استمر القتال بين الطرفين نحو شهرين اضطر الشيخ شامل — تحت تأثير قلة رجاله وسلاحه الذى بقى لديه — إلى الانسحاب من هنا أيضاً ، واتجه بأهله وعياله ومن رافقه من مخلصى أصحابه إلى قلعة « غونيب » الحصينة ، وتحصن فيها ، كان ذلك فى أول المحرم سنة ١٢٧٦ هـ (٣١ يولية سنة ١٨٥٩ م) .

٩ — تحصن الشيخ شامل بقلعة « غونيب » الحصينة ، ثم لحق به بعض المجاهدين المخلصين حتى بلغ عددهم نحو ثلثمائة رجل من المحاربين غير النساء والأطفال من آل شامل .

ولكن ما ذا عسى أن يصنع هؤلاء الثلثمائة رجل أمام هذه الجيوش الجرارة التى أحاطت بالقلعة إحاطة السوار بالمعصم ؟ فى هذه الأثناء صدرت إرادة قيصر الروس إلى قائد قواته فى القوقاز بضرورة القبض على الشيخ شامل حياً مهما كلف ذلك من ثمن.

ولهذا أخذت القوات الروسية تضيق الخناق على قلعة « غونيب » وفى الوقت نفسه طلب قائد الحملة الروسية من الشيخ شامل التسليم ، ووعده بالابقاء على حياته هو ومن معه من المجاهدين ، والنساء والأطفال .

(البقية فى العدد القادم) رفيق العظم الدمشقي